

والمحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم وعذل العاذل، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة، كما قد قال أكثر الشعراء في ذلك، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه من جهاد أعدائه، فإن الملام على ذلك كثير. وأما الملام على فعل ما يكرهه الله أو ترك ما أحبه فهو لوم بحق، وليس من المحمود الصبر على هذا الملام، بل الرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل. وبهذا يحصل الفرق بين «الملامية» الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم في ذلك، وبين «الملامية» الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام في ذلك.

فَصْل

وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني، فالخوف والرجاء وغيرها يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه. والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب. قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ / يَتَّبِعُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الآية: الإسراء: ٥٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨].

١٠/٦٢

ورحمته اسم جامع لكل خير. وعذابه اسم جامع لكل شر. ودار الرحمة الخالصة هي الجنة، ودار العذاب الخالص هي النار، وأما الدنيا فدار امتزاج، فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة فالجنة اسم جامع لكل نعيم، وأعلاه النظر إلى وجه الله، كما في صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا؟ ألم ينقل موازيننا ويدخلنا الجنة وينجينا من النار؟» قال: «فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه»^(١) وهو الزيادة.

ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال: ما عبدتك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك، وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك، فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات، كما يوافق على ذلك من ينكر رؤية الله من الجهمية، أو من يقربها ويزعم أنه لا تمتع بنفس رؤية الله، كما يقوله طائفة من المتفهمة. فهؤلاء متفقون على أن

(١) مسلم في الإيمان (٢٩٧/١٨١) وأحمد ٤/٣٣٢، ٣٣٣ وابن ماجه في المقدمة (١٨٧).

مسمى الجنة والآخرة / لا يدخل فيه إلا المتمتع بالمخلوقات؛ ولهذا قال بعض من غلط من المشائخ لما سمع قوله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] قال فأين من يريد الله، وقال آخر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] قال: إذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر إليه، وكل هذا لظنهم أن الجنة لا يدخل فيها النظر.

والتحقيق أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم، وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله، وهو من النعيم الذي ينالونه في الجنة، كما أخبرت به النصوص. وكذلك أهل النار فإنهم محجوبون عن ربهم، ويدخلون النار، مع أن قائل هذا القول إذا كان عارفاً بما يقول فإنما قصده أنك لو لم تخلق ناراً أو لو لم تخلق جنة لكان يجب أن تعبد ويجب التقرب إليك والنظر إليك، ومقصوده بالجنة هنا ما يتمتع فيه المخلوق.

وأما عمل الحبي بغير حب ولا إرادة أصلاً، فهذا ممتنع وإن تخيله بعض الغالطين من النساك، وظن أن كمال العبد ألا تبقى له إرادة أصلاً؛ فذاك لأنه تكلم في حال الفناء والغفاني - الذي يشتغل بحبوه - له إرادة ومحبة ولكن لا يشعر بها، فوجود المحبة شيء، والإرادة شيء، والشعور بها شيء آخر. فلما لم يشعروا بها ظنوا انتفاءها وهو غلط، فالعبد لا يتصور أن يتحرك قط إلا عن حب وبغض وإرادة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «أصدق الأسماء حارث وهمام»^(١). فكل إنسان له حرث وهو العمل، وله هم وهو أصل الإرادة، ولكن تارة يقوم بالقلب من محبة الله ما يدعو إلى طاعته، ومن إجلاله والحياء منه ما ينهاه عن معصيته، كما قال عمر - رضي الله عنه: نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه أي: هو لم يعصه ولو لم يخفه، فكيف إذا خافه، فإن إجلاله وإكرامه لله يمنعه من معصيته.

فالراجي الخائف إذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه، والتنعم بتجليه له، فمعلوم أن هذا من توابع محبته له، فالمحبة هي التي أوجبت محبة التجلي والخوف من الاحتجاب، وإن تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب بمخلوق والتنعم به، فهذا إنما يطلب ذلك بعبادة الله المستلزمة محبته، ثم إذا وجد حلاوة محبة الله وجدها أحلى من كل محبة؛ ولهذا يكون اشتغال أهل الجنة بذلك أعظم من كل شيء، كما في الحديث: «إن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس»^(٢) وهو يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته. فالخوف من التعذب بمخلوق والرجاء له يسوقه إلى محبة الله التي هي الأصل.

(١) أبو داود في الأدب (٤٩٥٠) والبداية والنهاية ٢٠٥/١٢.

(٢) مسلم في الجنة (١٨/٢٨٣٥)، والدارمي في الرقاق ٢/٣٣٥، وأحمد ٣/٣٤٩، ٣٥٤، ٣٨٤، كلهم عن جابر.

وهذا كله يبنني على أصل المحبة، فيقال: قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبة العباد المؤمنين، كما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار» (١).

/ بل محبة رسول الله ﷺ وجبت لمحبة الله كما في قوله تعالى: ﴿أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وكما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (٢)، وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال: والله لأنت أحب إلي من نفسي، قال: «الآن يا عمر» (٣).

وكذلك محبة صحابته وقربته، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار» (٤)، وقال: «لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر» (٥)، وقال علي - رضي الله عنه: إنه لعهد النبي الأمي إلى أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق (٦). وفي السنن أنه قال للعباس: «والذي نفسي بيده، لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرباتي» (٧) يعني: بني هاشم، وقد روى حديث عن ابن عباس مرفوعاً أنه قال: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي لأجلي» (٨).

(١) سبق تخريجه ص ٣٢.

(٢) البخاري في الإيمان (١٤) ومسلم في الإيمان (٦٩/٤٤) عن أنس.

(٣) البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٣٢).

(٤) البخاري في الإيمان (١٧)، عن أنس.

(٥) مسلم في الإيمان (١٣٠/٧٦)، والترمذي في المناقب (٣٩٠٦)، وقال: «حسن صحيح»، وأحمد ٣٠٩/١ والحديث عن ابن عباس إلا مسلم فهو عن أبي هريرة.

(٦) مسلم في الإيمان (١٣١/٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٧٣٦)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الإيمان (٥٠٢٢)، وابن ماجه في المقدمة (١١٤)، كلهم عن علي.

(٧) ابن ماجه في المقدمة (١٤٠)، وفي الزوائد: «رجال إسناده ثقات. إلا أنه قيل: رواية محمد بن كعب عن العباس مرسله»، وأحمد ١٦٥/٤، وضعفه الألباني.

(٨) الترمذي في المناقب (٣٧٨٩) وقال: «حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه» والحاكم ١٥٠/٣ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

وأما محبة الرب - سبحانه - لعبده فقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿فَاتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى / مَدَّتْهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وأما الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة، وكذلك حبه لأهلها وهم المؤمنون أولياء الله المتقون.

وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشايخ الدين المتبعون، وأئمة التصوف إن الله - سبحانه - محبوب لذاته محبة حقيقية، بل هي أكمل محبة، فإنها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وكذلك هو - سبحانه - يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية.

وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين، زعماً منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة، وكان أول من ابتدع هذا في الإسلام هو الجعد بن درهم في أوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق بواسطة. خطب الناس يوم الأضحى فقال: أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضع بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم / موسى تكليماً، ثم نزل فذبحه، وكان قد أخذ هذا المذهب عنه الجهم بن صفوان فأظهره وناظر عليه، وإليه أضيف قول الجهمية، فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان بها، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد، وظهر قولهم أثناء خلافة المأمون، حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوا إلى الموافقة لهم على ذلك.

وأصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة أهل الكتاب الذين يزعمون أن الرب ليس له صفة ثبوتية أصلاً، وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل - عليه السلام - وهم يعبدون الكواكب وبينون الهياكل للعقول والنجوم وغيرها، وهم ينكرون في الحقيقة أن يكون إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمى الخليل خليلاً

ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله » يعني: نفسه ، وفي رواية : « إني أبرأ إلى كل خليل من خلته ، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً » ، وفي رواية : « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم / خليلاً» (١) ، فبين ﷺ أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلاً ، وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس بها أبو بكر الصديق - رضي الله عنه . مع أنه ﷺ قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصاً كما قال لمعاذ: «والله إني لأحبك» (٢) وكذلك قوله للأَنْصار . وكان زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ ، وكذلك ابنه أسامة حبه ، وأمثال ذلك . وقال له عمرو بن العاص: أي الناس أحب إليك ؟ قال: « عائشة » . قال: فمن الرجال؟ قال: «أبوها» (٣) ، وقال لفاطمة ابنته - رضي الله عنها : « ألا تحبين ما أحب؟ » قالت : بلى ، قال: « فأحبي عائشة » (٤) . وقال للحسن: « اللهم إني أحبه فأحبه ، وأحب من يحبه » (٥) وأمثال هذا كثير .

فوصف نفسه بمحبة أشخاص وقال : «إني أبرأ إلى كل خليل من خلته ، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً» ، فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة بحيث هي من كمالها وتخللها المحب حتى يكون المحبوب بها محبوباً لذاته لا لشيء آخر؛ إذ المحبوب لشيء غيره هو مؤخر في الحب عن ذلك الغير، ومن كمالها لا تقبل الشركة والمزاحمة لتخللها المحب ففيها كمال التوحيد وكمال الحب .

فالخلة تنافي المزاحمة ، وتقدم الغير بحيث يكون المحبوب محبوباً لذاته / محبة لا يزارحه فيها غيره ، وهذه محبة لا تصلح إلا لله ، فلا يجوز أن يشركه غيره فيما يستحقه من المحبة ، وهو محبوب لذاته وكل ما يحب غيره - إذا كان محبوباً بحق - فإنما يحب لأجله ، وكل ما أحب لغيره فمحبته باطلة ، فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله تعالى . وإذا كانت الخلة كذلك فمن المعلوم أن من أنكر أن يكون الله محبوباً لذاته ينكر

(١) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٥٤) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٣/٣-٧) .

(٢) أبو داود في الصلاة (١٥٢٢) ، ومالك في الشعر ٩٥٤/٢ (١٦) .

(٣) البخاري في المغازي (٤٣٥٨) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٨/٢٣٨٤) ، والترمذي في المناقب (٣٨٨٦) .

(٤) مسلم في فضائل الصحابة (٨٣/٢٤٤٢) ، والنسائي في الكبرى في عشرة النساء ٢٨١/٥ (٨٨٩٢) .

(٥) البخاري في البيوع (٢١٢٢) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٥٦/٢٤٢١ ، ٥٧) ، وابن ماجه في المقدمة (١٤٢) ،

كلهم عن أبي هريرة .

مخاللته. وكذلك أيضاً إن أنكر محبته لأحد من عباده فهو ينكر أن يتخذه خليلاً بحيث يحب الرب ويحبه العبد على أكمل ما يصلح للعباد.

وكذلك تكليمه لموسى أنكره؛ لإنكارهم أن تقوم به صفة من الصفات أو فعل من الأفعال، فكما ينكرون أن يتصف بحياة أو قدرة أو علم أو أن يستوى أو أن يجيء فكذلك ينكرون أن يتكلم أو يكلم، فهذا حقيقة قولهم. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

لكن لما كان الإسلام ظاهراً والقرآن متلوا، لا يمكن جرده لمن أظهر الإسلام، أخذوا يلحدون في أسماء الله ويحرفون الكلم عن مواضعه فتأولوا محبة العباد له بمجرد محبتهم لطاعته أو التقرب إليه، وهذا جهل عظيم؛ فإن محبة المتقرب إلى المتقرب إليه تابع لمحبه وفرع عليه، فمن لا يحب الشيء لا يمكن أن يحب التقرب إليه؛ إذ التقرب وسيلة، ومحبة الوسيلة تبع لمحبة المقصود، فيمتنع أن تكون الوسيلة إلى الشيء المحبوب هي المحبوب دون الشيء المقصود بالوسيلة.

١٠/٧٠ / وكذلك العبادة والطاعة، إذا قيل في المطاع المعبود : إن هذا يحب طاعته وعبادته، فإن محبته ذلك تبع لمحبه، وإلا فمن لا يحب لا يحب طاعته وعبادته، ومن كان لا يعمل لغيره إلا لعوض يناله منه أو لدفع عقوبة فإنه يكون معاوضاً له أو مفتدياً منه لا يكون محباً له. ولا يقال إن هذا يحبه ويفسر ذلك بمحبة طاعته وعبادته، فإن محبة المقصود وإن استلزمت محبة الوسيلة أو غير محبة الوسيلة، فإن ذلك يقتضى أن يعبر بلفظين: محبة العوض والسلامة عن محبة العمل. أما محبة الله فلا تعلق لها بمجرد محبة العوض، ألا ترى أن من استأجر أجيراً بعوض لا يقال: إن الأجير يحبه بمجرد ذلك. بل قد يستأجر الرجل من لا يحبه بحال بل من يبغضه، وكذلك من افتدى نفسه بعمل من عذاب معذب لا يقال: إنه يحبه بل يكون مبغضاً له. فعلم أن ما وصف الله به عباده المؤمنين من أنهم يحبونه يمتنع ألا يكون معناه إلا مجرد محبة العمل الذي ينالون به بعض الأغراض المخلوقة من غير أن يكون ربهم محبوباً أصلاً.

وأيضاً، فلفظ العبادة متضمن للمحبة مع الذل كما تقدم؛ ولهذا كانت محبة القلب للبشر على طبقات:

أحدها: العلاقة: وهو تعلق القلب بالمحبوب، ثم الصباية: وهو انصباب القلب إليه، ثم الغرام: وهو الحب اللازم، ثم العشق وآخر / المراتب هو التتيم: وهو التعبد للمحبوب،

١٠/٧١

والمتميم المعبود ، وتيم الله عبد الله فإن المحب يبقى ذاكراً معبداً مذكراً لمحبوبه .

وأيضاً ، فاسم الإنابة إليه يقتضى المحبة أيضاً ، وما أشبه ذلك من الأسماء ، كما تقدم .

وأيضاً ، فلو كان هذا الذي قالوه حقاً من كون ذلك مجازاً لما فيه من الحذف والإضمار ، فالمجاز لا يطلق إلا بقريظة تبين المراد . ومعلوم أن ليس في كتاب الله وسنة رسوله ما ينفي أن يكون الله محبوباً ، وألا يكون المحبوب إلا الأعمال لا في الدلالة المتصلة ولا المنفصلة بل ولا في العقل أيضاً . وأيضاً : فمن علامات المجاز صحة إطلاق نفيه ، فيجب أن يصح إطلاق القول بأن الله لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ ، كما أطلق إمامهم الجعد ابن درهم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، ومعلوم أن هذا ممتنع بإجماع المسلمين ، فعلم دلالة الإجماع على أن هذا ليس مجازاً ، بل هي حقيقة .

و أيضاً ، فقد فرق بين محبته ومحبة العمل له في قوله تعالى : ﴿ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ﴾ [التوبة: ٢٤] ، كما فرق بين محبته ومحبة رسوله في قوله تعالى : ﴿ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فلو كان المراد بمحبته ليس إلا محبة العمل لكان هذا تكريراً ، أو من باب عطف الخاص على العام ، وكلاهما على خلاف ظاهر الكلام الذي لا يجوز المصير إليه إلا بدلالة تبيين المراد . وكما أن / محبته لا يجوز أن تفسر بمجرد محبة رسوله ، فكذلك لا يجوز تفسيرها بمجرد محبة العمل له ، وإن كانت محبته تستلزم محبة رسوله ومحبة العمل له .

١٠ / ٧٢

وأيضاً ، فالتعبير بمحبة الشيء عن مجرد محبة طاعته لا عن محبة نفسه أمر لا يعرف في اللغة لا حقيقة ولا مجازاً ، فحمل الكلام عليه تحريف محض أيضاً . وقد قررنا في مواضع من القواعد الكبار أنه لا يجوز أن يكون غير الله محبوباً مراداً لذاته كما لا يجوز أن يكون غير الله موجوداً بذاته ، بل لا رب إلا الله ، ولا إله إلا هو المعبود ، الذي يستحق أن يحب لذاته ويعظم لذاته ، كمال المحبة والتعظيم .

وكل مولود يولد على الفطرة فإنه - سبحانه - فطر القلوب على أنه ليس في محبوباتها ومراداتها ما تطمئن إليه وتنتهي إليه إلا الله وحده ، وإن كل ما أحبه المحبوب من مطعوم وملبوس ومنظور ومسموع وملموس يجد من نفسه أن قلبه يطلب شيئاً سواه ، ويحب أمراً غيره يتألهه ويصمد إليه ويطمئن إليه ويرى ما يشبهه من هذه الأجناس ؛ ولهذا قال الله تعالى في كتابه : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] ، وفي الحديث

الصحيح عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ عن الله تعالى قال: «إني خلقت عبادي حنفاءً فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»^(١)، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج / البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ﴾^(٢) [الروم: ٣٠].

١٠/٧٣

وأيضاً ، فكل ما فطرت القلوب على محبته من نعوت الكمال فالله هو المستحق له على الكمال ، وكل ما في غيره من محبوب فهو منه - سبحانه وتعالى - فهو المستحق لأن يحب على الحقيقة والكمال . وإنكار محبة العبد لربه هو في الحقيقة إنكار لكونه إلهاً معبوداً، كما أن إنكار محبته لعبده يستلزم إنكار مشيئته وهو يستلزم إنكار كونه رباً خالقاً فصار إنكارها مستلزماً لإنكار كونه رب العالمين، ولكونه إله العالمين . وهذا هو قول أهل التعطيل والحدود .

ولهذا اتفقت الأمتان قبلنا على ما عندهم من مآثور وحكم عن موسى وعيسى - صلوات الله عليهما وسلامه - أن أعظم الوصايا أن تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك ، وهذا هو حقيقة الحنيفة ملة إبراهيم التي هي أصل شريعة التوراة والإنجيل والقرآن، وإنكار ذلك هو مأخوذ عن المشركين والصابئين أعداء إبراهيم الخليل ، ومن وافقهم على ذلك من متفلسف ومتكلم ومتفقه ومبتدع أخذ عن هؤلاء ، وظهر ذلك في القرامطة الباطنية من الإسماعيلية ؛ ولهذا قال الخليل إمام الحنفاء - صلوات الله وسلامه عليه : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧] ، وقال أيضاً: ﴿الْأَحِبُّ / الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ، ٨٩] وهو السليم من الشرك .

١٠/٧٤

وأما قولهم: إنه لا مناسبة بين المحدث والقديم توجب محبته له وتمتعه بالنظر إليه . فهذا الكلام مجمل ، فإن أرادوا بالمناسبة أنه ليس بينهما توالد فهذا حق ، وإن أرادوا أنه ليس بينهما من المناسبة ما بين الناكح والمنكوح والآكل والمأكول أو نحو ذلك فهذا أيضاً حق ، وإن أرادوا أنه لا مناسبة بينهما توجب أن يكون أحدهما محباً عابداً والآخر معبوداً محبوباً فهذا هو رأس المسألة ، فالاحتجاج به مصادرة على المطلوب ، ويكفي في ذلك المنع .

(١) مسلم في الجنة (٦٣/٢٨٦٥) وأحمد ٤/١٦٢ .

(٢) البخاري في التفسير (٤٧٧٥) ومسلم في القدر (٢٦٥٨/٢٢ ، ٢٣) .

ثم يقال: بل لا مناسبة تقتضي المحبة الكاملة إلا المناسبة التي بين المخلوق والخالق، الذي لا إله غيره، الذي هو في السماء إله وفي الأرض إله، وله المثل الأعلى في السموات والأرض. وحقيقة قول هؤلاء جحد كون الله معبوداً في الحقيقة؛ ولهذا وافق على هذه المسألة طوائف من الصوفية المتكلمين الذين ينكرون أن يكون الله محباً في الحقيقة، فأقروا بكونه محبوباً ومنعوا كونه محباً؛ لأنهم تصوفوا مع ما كانوا عليه من قول أولئك المتكلمة، فأخذوا عن الصوفية مذهبهم في المحبة وإن كانوا قد يخلطون فيه، وأصل إنكارها إنما هو قول المعتزلة ونحوهم من الجهمية، فأما محبة الرب عبده فهم لها أشد إنكاراً. ومنكروها قسماً:

/ قسم يتأولونها بنفس المفعولات التي يحبها العبد فيجعلون محبته نفس خلقه.
وقسم يجعلونها نفس إرادته لتلك المفعولات. وقد بسطنا الكلام في ذلك في قواعد الصفات والقدر وليس هذا موضعها.

١٠ / ٧٥

ومن المعلوم أنه قد دل الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة على أن الله يحب ويرضى ما أمر بفعله من واجب ومستحب، وإن لم يكن ذلك موجوداً، وعلى أنه قد يريد وجود أمور يبغضها ويسخطها من الأعيان والأفعال كالفسق والكفر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

والمقصود هنا إنما هو ذكر محبة العباد لإلهم.

وقد تبين أن ذلك هو أصل أعمال الإيمان، ولم يتبين بين أحد من سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان نزاع في ذلك، وكانوا يحركون هذه المحبة بما شرع الله أن تحرك به من أنواع العبادات الشرعية، كالعرفان الإيماني والسماع الفرقاني، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ إلى آخر السورة [الشورى: ٥٢، ٥٣].

/ ثم إنه لما طال الأمد صار في طوائف المتكلمة من المعتزلة وغيرهم من ينكر هذه المحبة.

١٠ / ٧٦

وصار في بعض المتصوفة من يطلب تحريكها بأنواع من سماع الحديث كالتغيير، وسماع المكاء والتصديّة، فيسمعون من الأقوال والأشعار ما فيه تحريك جنس الحب الذي يحرك من كل قلب ما فيه من الحب بحيث يصلح لمحبة الأوثان والصلبان والإخوان والأوطان والمردان والنسوان كما يصلح لمحبة الرحمن، ولكن كان الذين يحضرونه من

الشيوخ يشترطون له المكان والإمكان والخلان، وربما اشترطوا له الشيخ الذي يحرس من الشيطان، ثم توسع في ذلك غيرهم حتى خرجوا فيه إلى أنواع من المعاصي، بل إلى أنواع من الفسوق، بل خرج فيه طوائف إلى الكفر الصريح بحيث يتواجدون على أنواع من الأشعار التي فيها الكفر والإلحاد، مما هو من أعظم أنواع الفساد، وينتج ذلك لهم من الأحوال بحسبه، كما تنتج لعباد المشركين وأهل الكتاب عباداتهم بحسبها.

والذي عليه محققو المشائخ أنه كما قال الجنيد - رحمه الله: من تكلف السماع فتن به، ومن صادفه السماع استراح به، ومعنى ذلك أنه لا يشرع الاجتماع لهذا السماع المحدث، ولا يؤمر به، ولا يتخذ ذلك ديناً، وقربة، فإن القرب والعبادات إنما تؤخذ عن الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - فكما أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا دين إلا ما شرعه الله. قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل محبتهم لله موجبة لمتابعة رسوله، وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الله لهم، قال أبي بن كعب - رضي الله عنه: عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله فاقشعر جلده من مخافة الله إلا تحاتت عنه خطاياها، كما يتحات الورق اليابس عن الشجرة، وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبداً، وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم اقتصاداً واجتهاداً على منهاج الأنبياء وستهم، وهذا مبسوط في غير هذا الموضوع.

فلو كان هذا مما يؤمر به ويستحب وتصلح به القلوب للمعبود المحبوب، لكان ذلك مما دلت الأدلة الشرعية عليه. ومن المعلوم أنه لم يكن في القرون الثلاثة المفضلة التي قال فيها النبي ﷺ: «خير القرون قرني الذي بعثت فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(١) لا في الحجاز، ولا في الشام، ولا في اليمن، ولا في العراق، ولا في مصر، ولا في خراسان أحد من أهل الخير والدين يجتمع على السماع المبتدع لصالح القلوب؛ ولهذا كرهه الأئمة كالإمام أحمد وغيره، حتى عدّه الشافعي من أحداث الزنادقة حين قال: خلفت ببغداد شيئاً أحدثه الزنادقة يسمونه التغيير، يصدون به الناس عن القرآن.

/وأما ما لم يقصده الإنسان من الاستماع، فلا يترتب عليه لا نهي ولا ذم باتفاق ١٠/٧٨

(١) البخاري في الشهادات (٢٦٥١) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٤/٢١٣).

الأئمة؛ ولهذا إنما يترتب الذم والمدح على الاستماع لا على السماع، فالمستمع للقرآن يثاب عليه والسماع له من غير قصد وإرادة لا يثاب على ذلك؛ إذ الأعمال بالنيات، وكذلك ما ينهى عن استماعه من الملاهي لو سمعه السماع بدون قصده لم يضره ذلك، فلو سمع السماع بيتاً يناسب بعض حاله فحرك ساكنه المحمود وأزعج قاطنه المحبوب أو تمثل بذلك ونحو ذلك لم يكن هذا مما ينهى عنه، وكان المحمود الحسن حركة قلبه التي يحبها الله ورسوله إلى محبته التي تتضمن فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه الله، كالذي اجتاز بيتاً فسمع قائلاً يقول:

كل يوم تتلون غير هذا بك أجمل

فأخذ منه إشارة تناسب حاله، فإن الإشارات من باب القياس والاعتبار وضرب الأمثال.

ومسألة «السماع» كبيرة منتشرة قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن المقاصد المطلوبة للمريدين تحصل بالسماع الإيماني القرآني النبوي الديني الشرعي الذي هو سماع النبيين، وسماع العالمين، وسماع العارفين، وسماع المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ / مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الآية [الزمر: ٢٣].

وكما مدح المقبلين على هذا السماع فقد ذم المعرضين عنه في مثل قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاطٌ فَجَسَدًا بَعْدَ أَلْمِ﴾ [لقمان: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ كَانَهُمْ حُمُرٌ مَسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ

خَيْرًا لِأَسْمَعِهِمْ ﴿ الآية [الأَنْفَال: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ / عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ . ١٠ / ٨ . كَانَهُمْ حَمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١] ومثل هذا كثير في القرآن .

وهذا كان سماع سلف الأمة وأكابر مشائخها وأئمتها كالصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشائخ كإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، ويوسف بن أسباط^(١)، وحذيفة المرعشي^(٢)، وأمثال هؤلاء .

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول لأبي موسى الأشعري: يا أبا موسى، ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يسمعون ويكون. وكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ القرآن والباقي يسمعون، وقد ثبت في الصحيح: أن النبي ﷺ مر بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ، فجعل يستمع لقراءته وقال: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود»^(٣)، وقال: «مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك»، فقال: لو علمت أنك تسمع خبرته لك تحبيراً^(٤)، أي: لحسنه لك تحسيناً، وقال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(٥)، وقال: «لله أشد أذنًا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قيته»^(٦) - أذنًا أي: استماعاً - كقوله: ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢] أي: استمعت، وقال ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لني حسن الصوت، يتغنّى بالقرآن يجهر به»^(٧)، وقال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(٨).

ولهذا السماع من المواجيد العظيمة، والأذواق الكريمة، ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة ما لا يتسع له خطاب، ولا يحويه كتاب، كما أن في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان .

(١) هو يوسف بن أسباط الشيباني، الزاهد، الواعظ، وثقه ابن معين، وقال البخاري: «دفن كنه، فكان حديثه لا يجيء كما ينبغي» وقال أبو حاتم: «لا يحتج به». [سير أعلام النبلاء ١٦٩/٩، ميزان الاعتدال ٤/٤٦٢].

(٢) هو حذيفة بن قتادة المرعشي، أحد الأولياء، صحب سفیان الثوري وروى عنه، توفي سنة ٢٠٧ هـ. [حلية الأولياء ٦٧/٨، صفة الصفوة ٤/٢٦٨، سير أعلام النبلاء ٩/٢٨٣].

(٣) البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٨) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٣٥/٧٩٣، ٢٣٦).

(٤) الخطيب في تاريخ بغداد ٨/٢٩٨ وقال الهيثمي في المجمع ٧/١٧٤: «رواه أبو يعلى وفيه خالد بن نافع الأشعري وهو ضعيف».

(٥) البخاري في التوحيد تعليقا، الفتح ١٣/٥١٨، وأبو داود في الصلاة (١٤٦٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٢)، وأحمد ٤/٢٨٣.

(٦) أحمد ٦/١٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٠)، وفي الزوائد: «إسناده حسن»، وضعفه الألباني .

(٧) البخاري في التوحيد (٧٥٤٤) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٢/٢٣٣).

(٨) البخاري في التوحيد (٧٥٢٧) وأحمد ١/١٧٢، ١٧٥ .

ومما ينبغي التفتن له أن الله - سبحانه - قال في كتابه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال طائفة من السلف: ادعى قوم على عهد النبي ﷺ أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ الآية، فين - سبحانه - أن محبته توجب اتباع الرسول، وأن اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد، وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوى محبة الله، فإن هذا الباب تكثر فيه الدعاوى والاشتباه؛ ولهذا يروي عن ذي النون المصري أنهم تكلموا في مسألة المحبة عنده فقال: استكثروا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدعيها.

وقال بعضهم: من عبد الله بالحلب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحلب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد، وذلك؛ لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع في أهوائها، إذا لم يزعمها وازع الخشية لله حتى قالت اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، ويوجد في مدعي المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد في أهل الخشية؛ ولهذا قرن الخشية بها في قوله: / ﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ . مِّنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ [ن: ٣٢-٣٤].

١٠ / ٨٢

وكان المشائخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم مجانية من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية؛ لما في ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة، وما وقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد، والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية، حتى صار المنحرفون صنفين: صنف يقر بحقها وباطلها.

وصنف ينكر حقها وباطلها، كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقهاء.

والصواب إنما هو الإقرار بما فيها، وفي غيرها من موافقة الكتاب، والسنة، والإنكار لما فيها وفي غيرها من مخالفة الكتاب والسنة.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ، فاتباع سنة رسوله ﷺ وشريعته باطناً وظاهراً هي موجب محبة الله، كما أن الجهاد في سبيله، وموالاته وأوليائه، ومعاداة أعدائه هو حقيقتها، كما في الحديث: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله»^(١)، وفي الحديث: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»^(٢).

١٠ / ٨٣

(١) الطبراني في الأوسط (٤٤٧٩) عن عبد الله بن مسعود وقال: الهيثمي في المجمع ١ / ١٦٧ ، ١٦٨ : « فيه عقيل بن الجعد ، قال البخاري : « منكر الحديث » .

(٢) أحمد ٣ / ٤٣٨ وأبو داود في السنة (٤٦٨١) والترمذي في القيامة (٢٥٢١) وقال: « حديث حسن ».

وكثير ممن يدعي المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة، وعن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، ويدعي مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره؛ لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيره، ولا غضب لله، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة؛ ولهذا في الحديث المأثور، يقول الله - تعالى - يوم القيامة: «أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»^(١)، فقله: أين المتحابون بجلال الله تنبيه على ما في قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه مع التحاب فيه، وبذلك يكونون حافظين لحدوده، دون الذين لا يحفظون حدوده لضعف الإيمان في قلوبهم، وهؤلاء الذين جاء فيهم الحديث: «حققت محبتي للمتحابين في، وحققت محبتي للمتجالسين في، وحققت محبتي للمتزاوئين في، وحققت محبتي للمتباذلين في»^(٢)، والأحاديث في المتحابين في الله كثيرة.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا وتفرقا عليه . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأه / ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين»^(٣).

وأصل المحبة: هو معرفة الله - سبحانه وتعالى - ولها أصلان:

أحدهما : وهو الذي يقال له: محبة العامة؛ لأجل إحسانه إلى عباده، وهذه المحبة على هذا الأصل لا ينكرها أحد، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، والله - سبحانه - هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة، فإنه المتفضل بجميع النعم، وإن جرت بواسطة، إذ هو ميسر الوسائط؛ ومسبب الأسباب، ولكن هذه المحبة في الحقيقة إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسه، فما أحب العبد في الحقيقة إلا نفسه، وكذلك كل من أحب شيئاً لأجل إحسانه إليه فما أحب في الحقيقة إلا نفسه. وهذا ليس بمذموم بل محمود.

وهذه المحبة هي المشار إليها بقوله ﷺ : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله ، وأحبوا أهلي بحبي»^(٤) ، والمقتصر على هذه المحبة هو لم يعرف من

(١) مسلم في البر والصلة (٢٥٦٦/٢٧) عن أبي هريرة وأحمد ٢/٢٣٧ .

(٢) مالك في الشعر ٢/٩٥٣ ، ٩٥٤ (١٦) ، وأحمد ٤/٣٨٦ ، ٥/٢٢٩ .

(٣) البخاري في الأذان (٦٦٠) ومسلم في الزكاة (١٠٣١/٩١) .

(٤) سبق تخريجه ص ٤٢ .

جهة الله ما يستوجب أنه يحبه إلا إحسانه إليه، وهذا كما قالوا: إن الحمد لله على نوعين: حمد هو شكر، وذلك لا يكون إلا على نعمته.

١٠/٨٥

و حمد هو مدح وثناء عليه ومحبة له وهو بما يستحقه لنفسه - سبحانه - / فكذلك الحب، فإن الأصل الثاني فيه هو محبته لما هو له أهل، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله، وما من وجه من الوجوه التي يعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه حتى جميع مفعولاته؛ إذ كل نعمة منه فضل، وكل نعمة منه عدل؛ ولهذا استحق أن يكون محموداً على كل حال، ويستحق أن يحمد على السراء، والضراء، وهذا أعلى وأكمل، وهذا حب الخاصة.

وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم، ويتلذذون بذكره ومناجاته، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك، حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم ما لا يطيقون، وهم السابقون كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: مر النبي ﷺ بجبل يقال له: جمدان، فقال: «سيروا هذا جمدان، سبق المفردون»، قالوا: يا رسول الله، من المفردون؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»^(١)، وفي رواية أخرى قال: «المستهترون بذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم، فيأتون الله يوم القيامة خفاً»^(٢) والمستهتر بذكر الله يتولع به ينعم به كلف لا يفتر منه.

وفي حديث هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال موسى: يا رب، أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني، قال: أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يطلب علم الناس إلى علمه ليجد كلمة تدله على / هدى أو ترده عن ردى، قال أي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم على نفسه كما يحكم على غيره ويحكم لغيره كما يحكم لنفسه^(٣). فذكر في هذا الحديث الحب والعلم والعدل وذلك جماع الخير.

١٠/٨٦

ومما ينبغي التفطن له أنه لا يجوز أن يظن في باب محبة الله - تعالى - ما يظن في محبة غيره مما هو من جنس التجني، والهجر، والقطيعة لغير سبب ونحو ذلك، مما قد يغلط فيه طوائف من الناس، حتى يتمثلون في حبه بجنس ما يتمثلون به في حب من يصد ويقطع بغير ذنب، أو يبعد من يتقرب إليه، وإن غلط في ذلك من غلط من المصنفين في رسائلهم حتى يكون مضمون كلامهم إقامة الحجة على الله، بل لله الحجة البالغة.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى:

(١) مسلم في الذكر والدعاء (٤/٢٦٧٦).

(٢) الترمذي في الدعوات (٣٥٩٦) وقال: «حسن غريب».

(٣) أخرج البيهقي في شعب الإيمان ٧/٢٩١ بنحوه من رواية قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس.

من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، ومن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني بمشي أتيته هرولة»^(١). وفي بعض الآثار يقول الله تعالى: «أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي، وإن تابوا فأنا حبيبهم - لأن الله يحب التوابين - وإن لم يتوبوا فأنا طبيهم، أبتليهم بالمصائب حتى أظهرهم من المعائب».

/وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ١٠/٨٧

[طه: ١١٢]، قالوا: الظلم: أن يحمل عليه سيئات غيره، والهضم: أن ينقص من حسنات نفسه. وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]، وفي الحديث الصحيح عن أبي ذر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، إنكم تذبون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب ولا أبا لي فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر، يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(٢).

١٠/٨٨ ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا الله أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات في يومه دخل الجنة، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة»^(٣).

(١) البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء (١/٢٦٧٥).

(٢) مسلم في البر والصلة (٥٥/٢٥٧٧).

(٣) البخاري في الدعوات (٦٣٢٣).

فالعبد دائما بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنوب منه يحتاج فيه إلى الاستغفار ، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائما، فإنه لا يزال يتقلب في نعم الله وآلائه، ولا يزال محتاجاً إلى التوبة والاستغفار.

ولهذا كان سيد ولد آدم، وإمام المتقين محمد ﷺ يستغفر في جميع الأحوال. وقال ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «أيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإني لأستغفر الله، وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(١)، وفي صحيح مسلم أنه قال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»^(٢)، وقال عبد الله بن عمر: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول: «رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الغفور، مائة مرة»^(٣).

ولهذا شرع الاستغفار في خواتيم الأعمال . قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وقال بعضهم: أحيا الليل بالصلاة فلما كان وقت السحر، أمروا بالاستغفار، وفي الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا، وقال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»^(٤)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩]، وقد أمر الله نبيه بعد أن بلغ الرسالة، وجاهد في الله حتى جهاده ، وأتى بما أمر الله به مما لم يصل إليه أحد غيره ، فقال تعالى: ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر] .

ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار ، كما قال الله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ الآية [هود: ٣-١] ، وقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] .

ولهذا جاء في الحديث: «يقول الشيطان: أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله

(١) البخاري في الدعوات (٦٣٠٧).

(٢) مسلم في الذكر والدعاء (٤١/٢٧٠٢) عن الأغر المزني.

(٣) أبو داود في الصلاة (١٥١٦) والترمذي في الدعوات (٣٤٣٤) وقال: «حسن صحيح غريب» وابن ماجه في الأدب (٣٨١٤).

(٤) مسلم في المساجد (١٣٥/٥٩١) عن ثوبان.

١٠/٩٠. إلا الله والاستغفار»^(١) وقد قال يونس: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ / إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ، وكان النبي ﷺ إذا ركب دابته يحمد الله ثم يكبر ثلاثا ويقول: « لا إله إلا أنت سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي »^(٢) ، وكفارة المجلس التي كان يحتتم بها المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك»^(٣) . والله أعلم ، وصلى الله على محمد وسلم .

(١) ابن أبي عاصم في السنة (٧) وأبو يعلى في مسنده (١٣٧/١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢١٠/١٠ وقال: « رواه أبو يعلى وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف » .

(٢) أبو داود في الجهاد (٢٦٠٢) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٤٦) وقال: « حسن صحيح » ، كلاهما عن علي بن ربيعة .

(٣) أحمد ٣٦٩/٢ وأبو داود في الأدب (٤٨٥٩) ، والدارمي في الاستئذان ٢٨٣/٢ .

/ وقال شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية - رحمه الله تعالى :

الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً .

فصل

في مرض القلوب وشفائها

قال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الحج: ٥٣] ، / وقال : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٠] ، وقال : ﴿ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ [المدثر: ٣١] ، وقال تعالى : ﴿ قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ [يونس: ٥٧] ، وقال : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ ، [الإسراء: ٨٢] ، وقال : ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ [التوبة: ١٤ ، ١٥] .

ومرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية ، فإدراكه إما أن يذهب كالعمى والصمم ، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه كما يدرك الخلو مرأً، وكما يخيل إليه أشياء للاحقيقة لها في الخارج .

وأما فساد حركته الطبيعية ، فمثل أن تضعف قوته عن الهضم ، أو مثل أن يبغض الأغذية التي يحتاج إليها ، ويحب الأشياء التي تضره ، ويحصل له من الآلام بحسب ذلك، ولكن مع ذلك المرض لم يمت ولم يهلك، بل فيه نوع قوة على إدراك الحركة الإرادية في الجملة، فيتولد من ذلك ألم يحصل في البدن إما بسبب فساد الكمية، أو الكيفية .

فالأول: إما نقص المادة فيحتاج إلى غذاء، وإما بسبب زيادتها، / فيحتاج إلى استفراغ. ١٠/٩٣
والثاني: كقوة في الحرارة والبرودة خارج عن الاعتدال، فيداوى.

فصل

وكذلك مرض القلب، هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره، وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق، أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع، ويحب الباطل الضار، فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب. كما فسر مجاهد وقتادة قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] أي: شك، وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله: ﴿فَيُطَمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

ولهذا صنف الخرائطي^(١) كتاب «اعتلال القلوب» أي مرضها، وأراد به مرضها بالشهوة، والمريض يؤديه ما لا يؤدي الصحيح، فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك، من الأمور التي لا يقوى عليها لضعفه بالمرض.

١٠/٩٤ والمرض في الجملة يضعف المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه / القوي، والصحة تحفظ بالمثل، وتزال بالضد، والمرض يقوى بمثل سببه، ويزول بضده، فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه، وزاد ضعف قوته، حتى ربما يهلك، وإن حصل له ما يقوي القوة ويزيل المرض، كان بالعكس.

ومرض القلب ألم يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك، فإن ذلك يؤلم القلب. قال الله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيَذْهَبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]، [١٥]، فشفائهم بزوال ما حصل في قلوبهم من الألم، ويقال: فلان شفى غيظه، وفي القود استشفاء أولياء المقتول، ونحو ذلك. فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن، وكل هذه آلام تحصل في النفس.

وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب، قال النبي ﷺ: «هلا سألوا إذا لم يعلموا، وإنما شفاء العي^(٢) السؤال»^(٣). والشاك في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه، حتى يحصل له

(١) هو أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاعر السامري الخرائطي، من حفاظ الحديث، من أهل السامرة بفلسطين، من تصانيفه: «مكارم الأخلاق»، «اعتلال القلوب» وغيرهما، ولد سنة ٢٤٠هـ وتوفي بيافا سنة ٣٢٧هـ. [تاريخ بغداد ١٣٩/٢، سير أعلام النبلاء ١٥/٢٦٧، شذرات الذهب ٢/٣٠٩].

(٢) العي: الجهل. النظر: النهاية في غريب الحديث ٣/٣٣٤.

(٣) أبو داود في الطهارة (٣٣٦) وابن ماجه في الطهارة (٥٧٢).

العلم واليقين، ويقال للعالم الذي أجاب بما بين الحق: قد شفاني بالجواب.

والمرض دون الموت، فالقلب يموت بالجهل المطلق، ويمرض بنوع من الجهل، فله موت ومرض، وحياة وشفاء، وحياته وموته ومرضه وشفائه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه؛ فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه، وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من / أسباب صلاحه وشفائه. قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣]؛ لأن ذلك أورث شبهة عندهم، والقاسية قلوبهم ليسها فأولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض، فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم، وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الإيمان، فصار فتنة لهم.

١٠/٩٥

وقال: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة﴾ [الأحزاب: ٦٠]، كما قال: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ [المدثر: ٣١]، لم تمت قلوبهم كموت الكفار والمنافقين، وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين، بل فيها مرض شبهة وشهوات، وكذلك ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وهو مرض الشهوة، فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه، فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض.

والقرآن شفاء لما في الصدور، ومن في قلبه أمراض الشبهات، والشهوات فقيه من البيئات ما يزيل الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم، والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والقصاص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره، فيبقى القلب محباً للرشاد مبغضاً للغي، بعد أن كان مريداً للغي مبغضاً للرشاد.

/ فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويعتدى القلب من الإيمان، والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يعتدى البدن بما ينميه ويقومه، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن.

١٠/٩٦

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة في الصلاح، يقال: زكا الشيء: إذا نما في الصلاح، فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له، ولا بد مع ذلك من منع ما يضره، فلا ينمو البدن إلا بإعطاء

ما ينفعه ومنع ما يضره، كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره، وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا.

والصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار، صار القلب يزكو بها، وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب. قال الله تعالى: ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب.

وكذلك ترك المعاصي، فإنها بمنزلة الأخلط الرديئة في البدن، ومثل الدغل^(١) في الزرع، فإذا استفرغ البدن من الأخلط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن، وكذلك القلب إذا / تاب من الذنوب كان استفرغاً من ١٠/٩٧ تخليطاته، حيث خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإرادته للأعمال الصالحة، واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه.

فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَايَ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ [النور: ٢٨]، وقال: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴾ [عبس: ٣]، وقال تعالى: ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]، فالتزكية وإن كان أصلها النماء، والبركة وزيادة الخير، فإنما تحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا.

وقال: ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وإثبات إلهية الحق في القلب، وهو حقيقة لا إله إلا الله. وهذا أصل ما تزكو به القلوب.

والتزكية: جعل الشيء زكياً، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر، / كما يقال: ١٠/٩٨ عدلته إذا جعلته عدلاً في نفسه، أو في اعتقاد الناس، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾

(١) الدغل: دخل في الأمر مُفسدًا، والشجر الكثير المتلف. انظر: القاموس المحيط، مادة «دغل».

[النجم: ٣٢]، أي: تخبروا بزكاتها، وهذا غير قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، وكان اسم زينب برة، فقيل تزكى نفسها، فسامها رسول الله ﷺ زينب.

وأما قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]، أي: يجعله زاكياً، ويخبر بزكاته كما يزكي المزكي اليهود فيخبر بعدلهم.

والعدل هو: الاعتدال، والاعتدال هو صلاح القلب، كما أن الظلم فساد؛ ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالماً لنفسه، والظلم خلاف العدل، فلم يعدل على نفسه، بل ظلمها، فصلاح القلب في العدل، وفساده في الظلم، وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم، كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه، فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر. قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والعمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج، فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، قال بعض السلف: إن للحسنة لنوراً في القلب، وقوة في البدن، وضيء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في / القلب، وسواداً في الوجه ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق.

١٠ / ٩٩

وقال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ﴾ [الطور: ٢١]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وقال: ﴿وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ لَأُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وتبسل أي: ترتحن وتحبس وتؤسر؛ كما أن الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه، والمرض إنما هو بإخراج المزاج، مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه، لكن الأمثل، فالأمثل، فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ومرضه من الزيف والظلم والانحراف، والعدل المحض في كل شيء متعذر علماً وعملاً، ولكن الأمثل فالأمثل؛ ولهذا يقال: هذا أمثل، ويقال للطريقة السلفية: الطريقة المثلى، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والله - تعالى - بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط ، وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس في حقوقهم ، ثم العدل على النفس .

10/100 /والظلم ثلاثة أنواع ، والظلم كله من أمراض القلوب ، والعدل صحتها وصلاحتها .
قال أحمد بن حنبل لبعض الناس: لو صححت لم تخف أحداً، أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك، كمرض الشرك والذنوب .

وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته ، قال تعالى: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] .

لذلك ذكر الله حياة القلوب ، ونورها ، وموتها ، وظلمتها في غير موضع كقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠] ، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ، ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] ، وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩] ، ومن أنواعه أنه يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن . وفي الحديث الصحيح: «سئل النبي الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه، سئل النبي والبيت»^(١) ، وفي الصحيح أيضاً: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً»^(٢) .

10/101 وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صَمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩] ، وذكر - سبحانه - آية النور وآية الظلمة ، فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ / مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] ، فهذا مثل نور الإيمان في قلوب المؤمنين ، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوفَاءً حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٣٩ ، ٤٠] .

فالأول: مثل الاعتقادات الفاسدة ، والأعمال التابعة لها ، يحسبها صاحبها شيئاً ينفعه فإذا جاءها لم يجدها شيئاً ينفعه ، فوفاه الله حسابها على تلك الأعمال .

(١) مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٩/٢١١) عن أبي موسى .

(٢) مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٧/٢٠٨) عن ابن عمر .

والثاني: مثل للجهل البسيط، وعدم الإيمان والعلم، فإن صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئاً، فإن البصر إنما هو بنور الإيمان والعلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]، وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه، فصرف الله به ما كان هم به، وكتب له حسنة كاملة ولم يكتب / عليه خطيئة إذا فعل خيراً، ولم يفعل سيئة. وقال تعالى: ﴿لَتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

١٠/١٠٢

ولهذا ضرب الله للإيمان مثلين ، مثلاً بالماء الذي به الحياة وما يقترن به من الزبد، ومثلاً بالنار التي بها النور وما يقترن بما يوقد عليه من الزبد.

وكذلك ضرب الله للنفاق مثلين قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أوديةً بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعِ زَبَدٌ مِّثْلَهُ كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧] ، وقال تعالى في المنافقين: ﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . صَمٌّ بَكْمٌ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ . أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧-٢٠].

/ فضرب لهم مثلاً كالذي أوقد النار كلما أضاءها الله، والمثل المائي كالمثل النازل من السماء، وفيه ظلمات ورعد وبرق يرى. ولبسظ الكلام في هذه الأمثال موضع آخر.

١٠/١٠٣

وإنما المقصود هنا ذكر حياة القلوب وإنارتها، وفي الدعاء المأثور: «اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا»^(١) ، والربيع: هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات، قال

(١) أحمد ١/٣٩١، ٤٥٢ عن عبد الله بن مسعود ، وقال الهيثمي في المجمع ١٠ / ١٣٩ : « رجال أحمد رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان » .

النبي ﷺ: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً^(١) أو يُلِمُّ^(٢)». والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تسميه العرب الربيع، لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه، وغيرهم يسمي الربيع الفصل الذي يلي الشتاء، فإن فيه تخرج الأزهار التي تخلق منها الثمار، وتنبت الأوراق على الأشجار.

والقلب الحي المنور؛ فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل، والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر. قال تعالى: ﴿ وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صَمِّ بِكُمْ عَمِي فَهَمُّ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ . وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ [يونس: ٤٢، ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ / وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥].

فأخبر أنهم لا يفقهون بقلوبهم ولا يسمعون بأذانهم ولا يؤمنون بما رأوه من النار، كما أخبر عنهم حيث قالوا: ﴿ قُلُوبِنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥]. فذكروا الموانع على القلوب والسمع والأبصار، وأبدانهم حية تسمع الأصوات وترى الأشخاص؛ لكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم، لها سمع وبصر وهي تأكل وتشرب وتنكح، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ ﴾.

فسبهم بالغنم الذي ينق بها الراعي وهي لا تسمع إلا نداء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

١٠/١٠٥ / فطائفة من المفسرين تقول في هذه الآيات وما أشبهها كقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ

(١) هو من قولهم: حبطت الدابة حبطاً: إذا أصابت مرعى طيباً فأفترطت في الأكل حتى تنتفخ وتموت. انظر:

النهاية في غريب الحديث ١/٣٣١.

(٢) البخاري في الزكاة (١٤٦٥)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٢/١٢١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٥)، وأحمد ٧/٣،

٢١، كلهم عن أبي سعيد الخدري.

ومعنى: يُلِمُّ: أي: يقرب من القتل. النهاية في غريب الحديث ٤/٢٧٢.

الضُّرُّ دَعَانًا لِحَبِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ﴿١٢﴾ [يونس: ١٢]، وأمثالها مما ذكر الله في عيوب الإنسان وذمها، فيقول هؤلاء: هذه الآية في الكفار، والمراد بالإنسان هنا الكافر، فيبقى من يسمع ذلك يظن أنه ليس لمن يظهر الإسلام في هذا الذم والوعيد نصيب، بل يذهب وهمه إلى من كان مظهرًا للشرك من العرب، أو إلى من يعرفهم من مظهري الكفر، كاليهود والنصارى ومشركي الترك والهند، ونحو ذلك، فلا يتفجع بهذه الآيات التي أنزلها الله ليهتدي بها عباده.

فيقال: أولاً: المظهرون للإسلام فيهم مؤمن و منافق، والمنافقون كثيرون في كل زمان، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

ويقال: ثانياً: الإنسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر، وإن كان معه إيمان، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا أؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(١). فأخبر أنه من كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق.

/ وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه قال لأبي ذر - رضي الله عنه -: «إنك امرؤ فيك جاهلية»^(٢). وأبو ذر - رضي الله عنه - من أصدق الناس إيماناً، وقال في الحديث الصحيح: «أربع في أمي من أمر الجاهلية: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة، والاستسقاء بالنجوم»^(٣)، وقال في الحديث الصحيح: «لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا: اليهود والنصارى؟! قال: «فمن؟!»^(٤). وقال أيضاً في الحديث الصحيح: «لتأخذن أمي ما أخذت الأمم قبلها، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع» قالوا: فارس والروم؟! قال: «ومن الناس إلا هؤلاء»^(٥).

١٠/١٠٦

وقال ابن أبي مُليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، وعن علي - أو حذيفة - رضي الله عنهما - قال: القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف فذاك قلب الكافر، وقلب منكوس،

(١) البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (١٠٦/٥٨) عن عبد الله بن عمرو.

(٢) البخاري في الإيمان (٣٠) ومسلم في الإيمان (٣٨/١٦٦١).

(٣) مسلم في الجنائز (٢٩/٩٣٤)، وأحمد ٥/٣٤٢، ٣٤٣، كلاهما عن أبي مالك الأشعري.

(٤) البخاري في الأنبياء (٣٤٥٦).

(٥) البخاري في الاعتصام (٧٣١٩) وأحمد ٢/٣٢٥.

فذاك قلب المنافق، وقلب فيه مادتان: مادة تمدد الإيمان، ومادة تمدد النفاق، فأولئك قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وإذا عرف هذا علم أن كل عبد ينتفع بما ذكر الله في الإيمان من مدح شعب الإيمان وذم شعب الكفر، وهذا كما يقول بعضهم في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. فيقولون: المؤمن قد هدى إلى الصراط المستقيم، فأى / فائدة في طلب الهدى؟! ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثبتنا على الهدى كما تقول العرب للنائم: نم حتى أتيك، أو يقول بعضهم: ألزم قلوبنا الهدى، فحذف الملزوم، ويقول بعضهم: زدني هدى، وإنما يوردون هذا السؤال؛ لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية إليه، فإن المراد به العمل بما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه في جميع الأمور.

والإنسان وإن كان أقر بأن محمداً رسول الله، وأن القرآن حق على سبيل الإجمال، فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره، وما أمر به، وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه، وما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمه، ولو قدر أنه بلغه كل أمر ونهي في القرآن والسنة، فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية، لا يمكن غير ذلك لا تذكر ما يخص به كل عبد؛ ولهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم.

والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله، يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلاً، ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات، ويتناول إلهام العمل بعلمه، فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه، ولهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ / صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١، ٢]، وقال في حق موسى وهارون: ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٧، ١١٨].

والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعملية، مع أنهم كلهم متفقون على أن محمداً حق، والقرآن حق، فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا، ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه ولا يحتذون حذوه، فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الأعمال؛ لفعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه، والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة، مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائماً في أن يهديهم الصراط المستقيم.

فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين. قال سهل بن عبد الله

التستري: ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار، وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل وهذا حقيقة قول من يقول: ثبتنا واهدنا لزوم الصراط .

وقول من قال: زدنا هدى، يتناول ما تقدم ، لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم، فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد ، ولا يكون مهتدياً حتى يعمل في المستقبل بالعلم ، وقد لا يحصل العلم في / المستقبل بل يزول عن القلب ، وإن حصل فقد لا يحصل العمل ، فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء ؛ ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة ، فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه ، وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة ، والله أعلم .

١٠ / ١٠٩

واعلم أن حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الإرادية ، أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار في علم الله وقدرته ، كأبي الحسين البصري، قالوا : إن حياته أنه بحيث يعلم ويقدر ، بل الحياة صفة قائمة بالموصوف ، وهي شرط في العلم والإرادة والقدرة على الأفعال الاختيارية ، وهي أيضاً مستلزمة لذلك ، فكل حي له شعور وإرادة وعمل اختياري بقدرة ، وكل ما له علم وإرادة وعمل اختياري فهو حي .

والحياء مشتق من الحياة ، فإن القلب الحي يكون صاحبه حياً فيه حياء يمنعه عن القبائح، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : «الحياء من الإيمان» (١) ، وقال: «الحياء والعبي شعبتان من الإيمان . والبذاء والبيان شعبتان من النفاق» (٢) .

فإن الحي يدفع ما يؤذيه، بخلاف الميت الذي لا حياة فيه فإنه يسمى وقحاً، والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة، فإذا كان وقحاً يابساً صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه، وامتناعه من القبح كالأرض / اليابسة لا يؤثر فيها طء الأقدام، بخلاف الأرض الخضرة .

١٠ / ١١٠

ولهذا كان الحي يظهر عليه التأثير بالقبح ، وله إرادة تمنعه عن فعل القبح ، بخلاف الوقح الذي ليس بحي فلا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك . فالقلب إذا كان حياً

(١) البخاري في الإيمان (٢٤) ومسلم في الإيمان (٥٩/٣٦) .

(٢) الترمذي في البر والصلوة (٢٠٢٧) وقال: «حسن غريب، إنما نعرفه من حديث أبي غسان محمد بن مطرف» وأحمد ٥/٢٦٩ .

فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن، ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ﴾ [البقرة: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٩] مع أنهم موتى دخلون في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وفي قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الحج: ٦٦]، فالموت المثلث غير الموت المنفي. المثلث: هو فراق الروح البدن، والمنفي: زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن.

وهذا كما أن النوم أخو الموت، فيسمى وفاة ويسمى موتاً، وإن كانت الحياة موجودة فيهما. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]. وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من منامه يقول: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»^(١)، وفي حديث آخر: / «الحمد لله الذي رد على روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره، وفضلني ١٠/١١١ على كثير ممن خلق تفضيلاً»^(٢)، وإذا أوى إلى فراشه يقول: «اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها، لك مماتها ومحياها، إن أمسكتها فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(٣)، ويقول: «باسمك اللهم أموت وأحيا»^(٤).

فصل

ومن أمراض القلوب الحسد، كما قال بعضهم في حده: إنه أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء، فلا يجوز أن يكون الفاضل حسوداً؛ لأن الفاضل يجري على ما هو الجميل، وقد قال طائفة من الناس: إنه تمنى زوال النعمة عن المحسود، وإن لم يصر للحاسد مثلها، بخلاف الغبطة: فإنه تمنى مثلها من غير حب زوالها عن المغبوط.

والتحقيق أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان:

- (١) البخاري في الدعوات (٦٣١٢) عن حذيفة ومسلم في الذكر والدعاء (٥٩/٢٧١١) عن البراء.
- (٢) كنز العمال (٢١٤١٨) وعزاه لابن السني عن أبي هريرة. وجزء من حديث عند الترمذي في الدعوات (٣٤٠١) وقد حسنه.
- (٣) البخاري في التوحيد (٧٣٩٣)، والترمذي في الدعوات (٣٤٠١)، وقال: «حديث حسن»، وأحمد ٢/٢٤٦، كلهم عن أبي هريرة.
- (٤) مسلم في الذكر والدعاء (٥٩/٢٧١١) عن البراء.

أحدهما: كراهة للنعمة عليه مطلقاً، فهذا هو الحسد المذموم، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه، فيكون ذلك مرضاً في قلبه، ويلتذ بزوال النعمة عنه، وإن لم يحصل له نفع بزوالها، لكن نفعه / زوال الألم الذي كان في نفسه، ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه، وهو راحة، وأشدّه كالمريض الذي عولج بما يسكن وجعه والمرض باق؛ فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض. فإن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها، وقد يحصل نظير تلك النعمة لنظير ذلك المحسود.

١٠/١١٢

والحاسد ليس له غرض في شيء معين، لكن نفسه تكره ما أنعم به على النوع؛ ولهذا قال من قال: إنه تمنى زوال النعمة، فإن من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه.

والنوع الثاني: أن يكره فضل ذلك الشخص عليه، فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه، فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطة، وقد سماه النبي ﷺ حسداً في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق»^(١) هذا لفظ ابن مسعود، ولفظ ابن عمر: «رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالا فهو يتفق منه في الحق آناء الليل والنهار»^(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ولفظه: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه الليل والنهار، فسمعه رجل فقال: يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا، / فعملت فيه مثل ما يعمل هذا، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق. فقال رجل: يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا فعملت فيه مثل ما يعمل هذا»^(٣). فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي ﷺ إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة، وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه.

١٠/١١٣

فإن قيل: إذا لم سمي حسداً وإنما أحب أن ينعم الله عليه؟ قيل: مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكرامته أن يتفضل عليه، ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك، فلما كان مبدأ ذلك كرامته أن يتفضل عليه الغير كان حسداً؛ لأنه كراهة تتبعها محبة، وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس، فهذا ليس عنده من الحسد شيء.

(١) البخاري في العلم (٧٣) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٦٨/٨١٦).
(٢) البخاري في التوحيد (٧٥٢٩) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٦٦/٨١٥).
(٣) البخاري في التمني (٧٢٣٢).

ولهذا يتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني، وقد تسمى المنافسة، فيتنافس الاثنان في الأمر المحبوب المطلوب، كلاهما يطلب أن يأخذه، وذلك لكراهية أحدهما أن يتفضل عليه الآخر، كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر، والتنافس ليس مذمومًا مطلقاً، بل هو محمود في الخير، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ . خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٦].

فأمر المنافس أن ينافس في هذا النعيم ، لا ينافس في نعيم الدنيا / الزائل ، وهذا ١٠/١١٤ موافق لحديث النبي ﷺ فإنه نهى عن الحسد إلا فيمن أوتي العلم فهو يعمل به ويعلمه ، ومن أوتي المال فهو يتفقه ، فأما من أوتي علماً ولم يعمل به ولم يعلمه ، أو أوتي مالا ولم يتفقه في طاعة الله فهذا لا يحسد ولا يتمنى مثل حاله ، فإنه ليس في خير يرغب فيه، بل هو معرض للعذاب ، ومن ولي ولاية فيأتيها بعلم وعدل ، أدى الأمانات إلى أهلها، وحكم بين الناس بالكتاب والسنة، فهذا درجته عظيمة، لكن هذا في جهاد عظيم ، كذلك المجاهد في سبيل الله .

والنفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم ؛ فلهذا لم يذكره ، وإن كان المجاهد في سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال، بخلاف المنفق والمعلم فإن هذين ليس لهم في العادة عدو من خارج، فإن قدر أنهما لهما عدو يجاهدانه، فذلك أفضل لدرجتهما ، وكذلك لم يذكر النبي ﷺ المصلي والصائم والحاج ؛ لأن هذه الأعمال لا يحصل منها في العادة من نفع الناس الذي يعظمون به الشخص، ويسودونه ما يحصل بالتعليم والإنفاق .

والحسد في الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة ، وإلا فالعامل لا يحسد في العادة ، ولو كان تعمه بالأكل والشرب والنكاح أكثر من غيره ، بخلاف هذين النوعين فإنهما يحسدان كثيراً؛ ولهذا يوجد بين أهل / العلم الذين لهم أتباع من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك ، وكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفاق ماله ، فهذا ينفع الناس بقوت القلوب وهذا ينفعهم بقوت الأبدان ، والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا .

ولهذا ضرب الله - سبحانه - مثلين - مثلاً بهذا ، ومثلاً بهذا فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ

كُلُّ عَلِيٍّ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلِيٌّ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿[النحل: ٧٥، ٧٦].

والمثلان ضربهما الله - سبحانه - لنفسه المقدسة ، ولما يعبد من دونه ، فإن الأوثان لا تقدر لا على عمل ينفع ، ولا على كلام ينفع ، فإذا قدر عبد مملوك لا يقدر على شيء ، وآخر قد رزقه الله رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوى هذا المملوك العاجز عن الإحسان وهذا القادر على الإحسان المحسن إلى الناس سراً وجهراً . وهو - سبحانه - قادر على الإحسان إلى عباده ، وهو محسن إليهم دائماً ، فكيف يشبه به العاجز المملوك الذي لا يقدر على شيء حتى يشرك به معه ، وهذا مثل الذي أعطاه الله مالاً فهو ينفق منه آناً الليل والنهار .

10/116 /والمثل الثاني إذا قدر شخصان أحدهما أبكم لا يعقل ولا يتكلم ولا يقدر على شيء ، وهو مع هذا كلُّ عليٍّ مولاة أينما يوجهه لا يأت بخير ، فليس فيه من نفع قط ، بل هو كلُّ عليٍّ من يتولى أمره ، وآخر عالم عادل يأمر بالعدل ، ويعمل بالعدل ، فهو على صراط مستقيم ، وهذا نظير الذي أعطاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس .

وقد ضرب ذلك مثلاً لنفسه ، فإنه - سبحانه - عالم عادل قادر يأمر بالعدل ، وهو قائم بالقسط على صراط مستقيم . كما قال تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] ، وقال هود : ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

ولهذا كان الناس يعظمون دار العباس ، كان عبد الله يعلم الناس وأخوه يطعم الناس ، فكانوا يعظمون عليٍّ ذلك ، ورأى معاوية الناس يسألون ابن عمر عن المناسك وهو يفتيهم فقال : هذا والله الشرف ، أو نحو ذلك .

هذا وعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - نافس أبا بكر - رضي الله عنه - الإنفاق كما ثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ، فوافق ذلك مالاً عندي ، فقلت اليوم أسبق أبا بكر أن سبقته يوماً . قال فجئت بنصف مالي ، قال : فقال لي رسول / الله ﷺ : «ما أبقيت لأهلك؟» قلت : مثله ، وأتى أبو بكر - رضي الله عنه - بكل ما عنده ، فقال له رسول الله ﷺ : «ما أبقيت لأهلك؟» قال : أبقيت لهم الله ورسوله فقلت : لا أسابقك إلى شيء أبداً^(١) .

(١) الترمذي في المناقب (٣٦٧٥) وقال : «حسن صحيح» وأبو داود في الزكاة (١٦٧٨) ، والدارمي في الزكاة ٣٩٢ ، ٣٩١/١ .

فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة، لكن حال الصديق - رضي الله عنه - أفضل منه وهو أنه خال من المنافسة مطلقاً لا ينظر إلى حال غيره.

وكذلك موسى عليه السلام في حديث المعراج حصل له منافسة وغبطة للنبي صلى الله عليه وآله حتى بكى لما تجاوزه النبي صلى الله عليه وآله فقيل له: ما يبكيك: فقال: «أبكي، لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي»، أخرجاه في الصحيحين^(١)، وروى في بعض الألفاظ المروية غير الصحيح: «مررنا على رجل وهو يقول ويرفع صوته: أكرمته وفضلته، قال: فرفعناه إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا أحمد، قال: مرحباً بالنبي الأمي الذي بلغ رسالة ربه ونصح لأمته، قال: ثم اندفعنا فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى بن عمران، قلت: ومن يعاتب؟ قال: يعاتب ربه فيك، قلت: ويرفع صوته على ربه؟! قال: إن الله - عز وجل - قد عرف صدقه»^(٢).

/وعمر - رضي الله عنه - كان مشبهاً بموسى، ونبينا حاله أفضل من حال موسى، ١٠/١١٨ فإنه لم يكن عنده شيء من ذلك.

وكذلك كان في الصحابة أبو عبيدة بن الجراح ونحوه، كانوا سالمين من جميع هذه الأمور، فكانوا أرفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة، وإن كان ذلك مباحاً؛ ولهذا استحق أبو عبيدة - رضي الله عنه - أن يكون أمين هذه الأمة، فإن المؤمن إذا لم يكن في نفسه مزاحمة على شيء مما أوثمن عليه، كان أحق بالأمانة ممن يخاف مزاحمته؛ ولهذا يؤثمن على النساء والصبيان الخصبان، ويؤثمن على الولاية الصغرى من يعرف أنه لا يزاحم على الكبرى، ويؤثمن على المال من يعرف أنه ليس له غرض في أخذ شيء منه، وإذا أوثمن من في نفسه خيانة شبه بالذئب المؤمن على الغنم، فلا يقدر أن يؤدي الأمانة في ذلك لما في نفسه من الطلب لما أوثمن عليه.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس - رضي الله عنه - قال: كنا يوماً جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة»، قال: فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوء، قد علق نعليه في يده الشمال، فسلم، فلما كان الغد قال النبي صلى الله عليه وآله مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل على مثل

(١) البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٨٧)، ومسلم في الإيمان (١٦٤/٢٦٤)، كلاهما عن مالك بن صعصعة.

(٢) الدر المنثور للسيوطي ١٤٧/٤، وقال: «أخرجه ابن عرفة في جزئه المشهور، وأبو نعيم في الدلائل، وابن عساكر في تاريخه من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه».

حاله، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ مقالته فطلع ذلك الرجل على مثل حاله، فلما قام النبي ﷺ: اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي / الله عنه - فقال: إني لاحيت أبي، فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت. قال: نعم، قال أنس - رضي الله عنه -: فكان عبد الله يحدث أنه بات عنده ثلاث ليال، فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعار انقلب على فراشه ذكر الله - عز وجل - وكبر حتى يقوم إلى صلاة الفجر، فقال عبد الله: غير أنني لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما فرغنا من الثلاث وكدت أن أحقر عمله قلت: يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول ثلاث مرات: «يطلع عليكم رجل من أهل الجنة»، فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن آوى إليك لأنظر ما عملك، فأفتدى بذلك، فلم أركّ تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت، غير أنني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطق^(١). فقول عبد الله ابن عمرو له: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطق، يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد.

وبهذا أثنى الله - تعالى - على الأنصار فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، أي: مما أوتي إخوانهم المهاجرون، قال المفسرون: لا يجدون في صدورهم حاجة أي: حسداً وغيظاً مما أوتي المهاجرون، ثم قال بعضهم: من مال الفيء، وقيل: من الفضل والتقدم، فهم لا يجدون حاجة مما أوتوا من المال ولا من الجاه، والحسد يقع على هذا.

وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين، فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله أحب الآخرون أن يفعلوا نظير ذلك، فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله كما قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وأما الحسد المذموم كله، فقد قال تعالى في حق اليهود: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، يودون: أي: يتمنون ارتدادكم حسداً، فجعل الحسد هو الموجب لذلك

(١) أحمد ٣/١٦٦.

وقوله: «تُطْفَ حَيْتِه»: أي تططر. و«الاحيت أبي»: أي خاصمته ونازعته. انظر: القاموس، مادة «نطف»، والنهاية ٤/٢٤٣.

الود من بعد ما تبين لهم الحق؛ لأنهم لما رأوا أنكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل، بل ما لم يحصل لهم مثله حسدوكم، وكذلك في الآية الأخرى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَيَّ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٤، ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [سورة الفلق] .

وقد ذكر طائفة من المفسرين أنها نزلت بسبب حسد اليهود للنبي ﷺ حتى سحره: سحره ليبيد بن الأعصم اليهودي، فالحاسد / المبغض للنعمة على من أنعم الله عليه بها ظالم معتد، والكاره لتفضيله المحب لمماثلته منهي عن ذلك إلا فيما يقربه إلى الله، فإذا أحب أن يعطي مثل ما أعطى مما يقربه إلى الله فهذا لا بأس به، وإعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر إلى حال الغير أفضل.

ثم هذا الحسد، إن عمل بموجه صاحبه كان ظالماً معتدياً مستحقاً للعقوبة إلا أن يتوب، وكان المحسود مظلوماً مأموراً بالصبر والتقوى، فيصبر على أذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقد ابتلى يوسف بحسد إخوته له حيث قالوا: ﴿لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَا مِنْهُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]، فحسدوهما على تفضيل الأب لهما؛ ولهذا قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

ثم إنهم ظلموه بتكلمهم في قتله وإلقائه في الجب وبيعه رقيقاً لمن ذهب به إلى بلاد الكفر فصار مملوكاً لقوم كفر، ثم إن يوسف ابتلى بعد أن ظلم بمن يدعوه إلى الفاحشة ويراد عليها، ويستعين عليه بمن يعينه على ذلك فاستعصم، واختار السجن على الفاحشة، وأثر عذاب / الدنيا على سخط الله، فكان مظلوماً من جهة من أحبه لهواه، وغرضه الفاسد.

فهذه المحبة أحبته لهوي محبوبها شفاؤها وشفافه إن وافقها، وأولئك المبعوضون أبغضوه بغضة أوجبت أن يصير ملقى في الجب، ثم أسيراً مملوكاً بغير اختياره، فأولئك أخرجوه من إطلاق الحرية إلى رق العبودية الباطلة بغير اختياره، وهذه أجاته إلى أن اختار أن يكون محبوساً مسجوناً باختياره، فكانت هذه أعظم في محنته، وكان صبره هنا

صبراً اختيارياً اقترن به التقوى ، بخلاف صبره على ظلمهم فإن ذلك كان من باب المصائب التي من لم يصبر عليها صبر الكرام سلا سلوا اليهائم، والصبر الثاني أفضل الصبرين؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وهكذا إذا أودى المؤمن على إيمانه، وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان، وإن لم يفعل أودى وعوقب ، فاختر الأذى والعقوبة على فراق دينه: إما الحبس، وإما الخروج من بلده، كما جرى للمهاجرين، حيث اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين، وكانوا يعذبون ويؤذون.

وقد أودى النبي ﷺ بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبراً اختيارياً ، فإنه إنما يؤذى لثلا يفعل ما يفعله / باختياره ، وكان هذا أعظم من صبر يوسف؛ لأن يوسف إنما طلب منه الفاحشة وإنما عوقب إذا لم يفعل بالحبس، والنبي ﷺ وأصحابه طلب منهم الكفر وإذا لم يفعلوا طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه. وأهون ما عوقب به الحبس، فإن المشركين حبسوه وبني هاشم بالشعب مدة، ثم لما مات أبو طالب اشتدوا عليه، فلما بايعت الأنصار وعرفوا بذلك صاروا يقصدون منعه من الخروج ويحسونه هو وأصحابه عن ذلك ولم يكن أحد يهاجر إلا سراً ، إلا عمر بن الخطاب ونحوه، فكانوا قد أجزؤهم إلى الخروج من ديارهم ومع هذا منعوا من منعه منهم عن ذلك وحبسوه.

١٠ / ١٢٣

فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة لله ورسوله، لم يكن من المصائب السماوية التي تجرى بدون اختيار العبد من جنس حبس يوسف، لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه ، وهذا أشرف النوعين، وأهلها أعظم درجة - وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه وتكفر عنه الذنوب بمصائبه - فإن هذا أصيب وأودى باختياره طاعة لله يثاب على نفس المصائب ويكتب له بها عمل صالح، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيهِمْ ظَمًا وَلَا نَصَبًا وَلَا مَخْمَصَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

/ بخلاف المصائب التي تجرى بلا اختيار العبد، كالمرض وموت العزيز عليه وأخذ اللصوص ماله، فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها لا على نفس ما يحدث من المصيبة، لكن المصيبة يكفر بها خطاياها، فإن الثواب إنما يكون على الأعمال الاختيارية، وما يتولد عنها.

١٠ / ١٢٤

والذين يؤذون على الإيمان ، وطاعة الله ورسوله، ويحدث لهم بسبب ذلك حرج،

أو مرض، أو حبس، أو فراق وطن وذهاب مال وأهل ، أو ضرب أو شتم أو نقص رياسة ومال هم في ذلك علي طريقة الأنبياء وأتباعهم كالمهاجرين الأولين، فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به ويكتب لهم به عمل صالح، كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب وعلى غيظه الكفار، وإن كانت هذه الآثار ليست عملاً فعلة يقوم به لكنها متسببة عن فعله الاختياري ، وهي التي يقال لها متولدة.

وقد اختلف الناس: هل يقال: إنها فعل لفاعل السبب، أو لله أو لا فاعل لها، والصحيح أنها مشتركة بين فاعل السبب، وسائر الأسباب؛ ولهذا كتب له بها عمل صالح.

والمقصود أن الحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا قليل من الناس؛ ولهذا يقال: ما خلا / جسد من حسد ، لكن اللئيم يديه والكريم يخفيه، وقد قيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك إخوة يوسف لا أبالك! ولكن عمه في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعد به يداً ولساناً.

فمن وجد في نفسه حسداً لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر، فيكره ذلك من نفسه، وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود، فلا يعينون من ظلمه، ولكنهم أيضاً لا يقومون بما يجب من حقه، بل إذا ذمه أحد لم يوافقوه على ذمه ولا يذكرون محامده، وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا ، وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه مفرطون في ذلك، لا معتدون عليه، وجزاؤهم أنهم يبخسون حقوقهم فلا ينصفون أيضاً في مواضع ، ولا ينصرون على من ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسود ، وأما من اعتدى بقول أو فعل فذلك يعاقب.

ومن اتقى الله وصبر فلم يدخل في الظالمين، نفعه الله بتقواه؛ كما جرى لزینب بنت جحش - رضي الله عنها - فإنها كانت هي التي تسامى عائشة من أزواج النبي ﷺ وحسد النساء بعضهن لبعض كثير غالب، لا سيما المتزوجات بزواج واحد ، فإن المرأة تغار على زوجها لحظها منه، فإنه بسبب المشاركة يقوت بعض حظها.

/ وهكذا الحسد يقع كثيراً بين المتشاركين في رئاسة أو مال، إذا أخذ بعضهم قسطاً من ذلك وفات الآخر ، ويكون بين النظراء لكراهة أحدهما أن يفضل الآخر عليه ، كحسد إخوة يوسف ، وكحسد ابني آدم أحدهما لأخيه ، فإنه حسده لكون أن الله تقبل قربانه، ولم يتقبل قربان هذا، فحسده على ما فضله الله من الإيمان والتقوى - كحسد اليهود للمسلمين - وقتله على ذلك ؛ ولهذا قيل: أول ذنب عصى الله به ثلاثة : الحرص،

والكبر ، والحسد، فالحرص من آدم، والكبير من إبليس، والحسد من قابيل حيث قتل هابيل .

وفي الحديث : « ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد ، والظن، والطيرة، وسأحدثكم بما يخرج من ذلك: إذا حسدت فلا تبغض ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض» رواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة^(١) .

وفي السنن عن النبي ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد، والبغضاء وهي الخالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»^(٢) فسماه داء، كما سمي البخل داء في قوله: «وأي داء أذوأ من البخل؟!»^(٣) فعلم أن هذا مرض، وقد جاء في حديث آخر: «أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء، والأدواء»^(٤) فعطف الأدواء على الأخلاق والأهواء .

/ فإن الخلق ما صار عادة للنفس، وسجية، قال تعالى: «وإنك لعلى خلق عظيم» [القلم: ٤]، قال ابن عباس، وابن عيينة، وأحمد بن حنبل - رضي الله عنهم - على دين عظيم، وفي لفظ عن ابن عباس: على دين الإسلام ، وكذلك قالت عائشة - رضي الله عنها - : كان خلقه القرآن^(٥). وكذلك قال الحسن البصري: أدب القرآن هو الخلق العظيم .

وأما الهوى ، فقد يكون عارضاً ، والداء هو المرض ، وهو تألم القلب والفساد فيه ، وقرن في الحديث الأول الحسد بالبغضاء؛ لأن الحاسد يكره أولاً فضل الله على ذلك الغير، ثم ينتقل إلى بغضه، فإن بغض اللازم يقتضى بغض الملزوم، فإن نعمة الله إذا كانت لازمة وهو يحب زوالها، وهي لا تزول إلا بزواله أبغضه وأحب عدمه، والحسد يوجب البغي ، كما أخبر الله - تعالى - عن قبلنا: أنهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، فلم يكن اختلافهم لعدم العلم، بل علموا الحق ولكن بغى بعضهم على بعض ، كما يبغى الحاسد على المحسود .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: « لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل

(١) كنز العمال (٤٣٧٨٩) ، وعزاه إلى « رسته » في الإيمان ، عن الحسن مرسلًا .

(٢) الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠) ، وقال: «اختلفوا في روايته ...» ، وأحمد ١/١٦٥ ، ١٦٧ ، كلاهما عن الزبير ابن العوام .

(٣) البخاري في فرض الخمس (٣١٣٧) ، وأحمد ٣/٨٠٣ ، كلاهما عن جابر .

(٤) الترمذي في الدعوات (٣٥٩١) ، وقال: « حديث حسن غريب» .

(٥) مسلم في صلاة المسافرين (١٣٩/٧٤٦) وأبو داود في الصلاة (١٣٤٢) وأحمد ٦/١٨٨ .

لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيصدّ هذا ويصدّ هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»^(١)، وقد قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته من رواية أنس أيضاً: «والذي / نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٢).

١٠/١٢٨

وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّنْ (٣) فَإِنْ أَصَابَكُمْ مِصْيَبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةً يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٢، ٧٣].

فهؤلاء المبطنون لم يحبوا لإخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم ، بل إن أصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم ، وإن أصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها، بل أحبوا أن يكون لهم منها حظ، فهم لا يفرحون إلا بدنيا تحصل لهم، أو شر دنوي ينصرف عنهم ، إذا كانوا لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة، ولو كانوا كذلك لأحبوا إخوانهم، وأحبوا ما وصل إليهم من فضله وتألموا بما يصيبهم من المصيبة، ومن لم يسره ما يسر المؤمنين، ويسوؤه ما يسوء المؤمنين فليس منهم.

ففي الصحيحين عن عامر قال : سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر»^(٤)، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وشبك بين أصابعه^(٥).

والشح مرض، والبخل مرض، والحسد شر من البخل، كما في الحديث / الذي رواه أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، والصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار»^(٦) وذلك أن البخل يمنع نفسه، والحسد يكره نعمة الله على عباده، وقد يكون في الرجل إعطاء لمن يعينه على أغراضه وحسد لنظرائه ، وقد يكون فيه بخل بلا حسد لغيره والشح أصل ذلك.

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شَحِّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] ، وفي

(١) البخاري في الأدب (٦٠٦٥) ومسلم في البر والصلة (٢٣/٢٥٥٩).

(٢) البخاري في الإيمان (١٣) ومسلم في الإيمان (٧١/٤٥).

(٣) في المطبوعة : «ليبطئن» ، والصواب ما أثبتناه.

(٤) البخاري في الأدب (٦٠١١) ومسلم في البر والصلة (٦٦/٢٥٨٦).

(٥) البخاري في المظالم (٢٤٤٦) ومسلم في البر والصلة (٦٥/٢٥٨٥).

(٦) أبو داود في الأدب (٤٩٠٣) ، وضعفه الألباني.

الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»^(١)، وكان عبد الرحمن بن عوف يكثر من الدعاء في طوافه يقول: اللهم قني شح نفسي، فقال له رجل: ما أكثر ما تدعو بهذا. فقال: إذا وقيت شح نفسي وقيت الشح والظلم والقطيعة. والحسد يوجب الظلم.

فَصْل

فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها، بل وجبها لما يضرها؛ ولهذا يقرن الحسد بالحقد والغضب، وأما مرض الشهوة، والعشق فهو حب النفس لما يضرها، وقد يقترن به بغضها لما ينفعها، والعشق مرض نفساني، وإذا قوى أثر في البدن فصار مرضاً في الجسم، إما من أمراض / الدماغ كالماليخوليا؛ ولهذا قيل فيه: هو مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا، وأما من أمراض البدن كالضعف والنحول ونحو ذلك.

والمقصود هنا مرض القلب؛ فإنه أصل محبة النفس لما يضرها كالمريض البدن الذي يشتهي ما يضره. وإذا لم يطعم ذلك تألم، وإن أطعم ذلك قوى به المرض وزاد.

كذلك العاشق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهدة وملازمة وسماعاً، بل ويضره التفكير فيه والتخيل له وهو يشتهي ذلك، فإن منع من مشتهاه تألم وتعذب، وإن أعطى مشتهاه قوي مرضه، وكان سبباً لزيادة الألم.

وفي الحديث: «إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب»^(٢)، وفي مناجاة موسى المأثورة عن وهب التي رواها الإمام أحمد في كتاب «الزهد» يقول الله تعالى: «إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها، كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مراتع الهلكة، وإني لأجنبهم سكنونها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وما ذلك لهوانهم علي، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي مالمأ موفراً لم تكلمه الدنيا ولم يطفئه الهوى»^(٣). وإنما شفاء المريض بزوال مرضه، بل بزوال ذلك الحب المذموم من قلبه.

(١) أبو داود في الزكاة (١٦٩٨)، والنسائي في تفسيره (٦٠٣)، وأحمد ١٥٩/٢، ١٦٠، ١٩١، ١٩٥.

(٢) أحمد ٤٢٨/٥، والترمذي في الطب بمعناه (٢٠٣٦)، وقال: «حسن غريب».

(٣) أحمد في الزهد ص ١٠٢ (٣٤١).